الكتب

على هامش السيرة

تأليف الدكتور طه حسين

للدكتور محمد عوض محمد

اذا ذكرت كلمة (السيرة) فى هذه الاقطار الفسيحة التى يظلها الاسلام ، فانها لن تنصرف إلا الى معنى واحد ، الى سيرة واحدة : هى سيرة محمد بن عبد الله .. وهيهات ان يكون فى الدهر كله سيرة أطيب نشرا وأعذب ذكرا من سيرة هذا النبى الأمى ، الذى نشأ وسط الصحراء المقفرة المظلمة فلم يلبث ان ملأ العالم خصباً ونورا

وإنى إذ أجلس الساعة لأقول كلمتى الضعيفة فى هذا الكتاب الذى بين يدى — تعود الى خاطرى ذكرى عهد بعيد ، حين كنت اطلب العلم فى مدرسة المعلمين ، وكنت أكثر من الاختلاف الى دار الكتب المصرية ؛ حيث أعكف على مطالعة الأسفار التى لها صلة بسيرة هذا النبى الكريم . وكنت أكثر على الخصوص ، من مطالعة ما كتبه المستشرقون عن الاسلام ، وعن الرسول عليه السلام . فكنت أحيانا أجد مايطفى الغلة ، وتبرق له الاسارير ، وينشرح له الصدر . فأنطلق الى دارى راضيا ، تملأ قلبى الغبطة والسرور . واحيانا كنت — ويالاسف ! — أقرأ مايبعث فى القلب حنقا وكمدا ، فأنصرف الى منزلى حزينا كئيبا مكلوم الفؤاد

ولست أدرى تماما ماالذى كان يجذبنى الى كتب المستشرقين فى تلك السنين ، مع أنها كتبت فى لغة غير لغتى ، وكنت أجد فى مطالعتها عسرا ومشقة ... لعلى كنت أقبل عليها إذ يشوقنى الانصات إلى شهادة غير المسلمين بفضل الاسلام ، لكنى أرجح الآن ان هنالك سببا آخر أدق وأخفى ، وهو أنى كنت ألتمس سيرة محمد بن عبد الله فى تلك الكتب غير العربية لأن ما كتب فيها — على علاته — سهل التناول ، منسق الوضع ، ولهذا لم تنه أيام دراستى فى ذلك العهد حتى طالعت ، مثلا ، مؤلفات السيد أمير على الانكليزية ولم استطع ان أقرأ جزءا واحداً من سيرة ابن هشام . وكان أكبر مانفرنى من هذه الكتب القديمة ذلك الاكثار من الاسانيد ، وادخال الحديث فى الحديث ، بحيث يختلط الكلام على غير من تعود مطالعة هذه الاسفار

ولقد شكوت الى الاستاذ طه حسين أنى بت مضطرا — قبل أن أبدى رأيا فى كتابه الجديد — الى مطالعة هذه الاسفار القديمة وأنى سأعيا بكل هذه الاسانيد الطويلة العريضة ، وهذه الأخبار المتداخل بعضها فى بعض . وماأظن دراستى القاصرة ستساعدنى على تذوقها والاستمتاع بها .

فقال الاستاذ : إن الدنيا عندى فى كل ماأطالع وأقرأ هو هذه الاسانيد الطويلة التى تنفر منها . وليس شىء أحب إلى من ان أصغى الى الخبر أو الحديث واتتبعه من اول الرواية الى آخرها.

فعجبت أولا كيف يتسنى لانسان ذى ذوق سليم ان تحلو له قراءة هذه العنعنات التى لاتكاد تنتهى . لكنى لم ألبث أن أفهمت ان المرء متى عرف الرواة جميعا وعلم من أمر كل منهم شيئا ، فان هذه الأسماء لاتصبح مجرد أسماء ، بل أشخاصا تعرفهم يتحدثون اليك ، وتعلم أيهم تستطيع ان تركن الى كلامه وروايته

وبعد ان شرح لى الاستاذ هذا الأمر الذى أشكل على ؛ تبينت — أو على الأقل ثبت لدى ما كنت أتوهمه من أمره وما أكاد أثبته — أن ثقافة الدكتور طه حسين الحقيقية هى ثقافة أزهرية متينة قوية الأسس ، ضخمة الدعائم ، وطيدة الأركان . وأن ليست ثقافته الغربية ، التى نسمع عنها الشىء الكثير ، الا رواء وطلاء . ان بهر العين منظره فانه لايذهب الى غور بعيد . وقديما قال نابليون فى الروس : إنك اذا حككت الروسى بدانك التترى . وفى وسعنا أيضا أن نقول اذا حككت طه حسين ، برفق ، بدا لك الازهرى القح الصميم بكل ماتحمله هذه الكلمة من فضل وعلم .

وقد استطاع طه حسين — على غير عمد — أن يصرف الناس عن حقيقة أمره بحديثه عن اليونان والرومان والكسون واللاتين ، واثارته هذه الزوابع التى برع فى إثارتها اثناء كلامه عن أشخاص مثل ديكارت وليبنتز وبودلير ؛ وعن التجديد ، وماأدراك ما التجديد . فلعل أصدقاء طه حسين أن يحمدوا لشخص الضعيف كاتب هذه السطور أن كشف لهم من أمر صديقهم ماخفى عليهم طوال هذه السنين .

وبعد ، فان بين يدى كتابا ليس موضوعه جديدا على قراء هذه الصحيفة . فان الفصول الثلاثة الأولى قد ولدت مع الرسالة ، وظهرت فى أعدادها الأولى ، وأعرف أن الكثير من قرائها قد راقهم من الموضوع جدته وطرافته ، ولست أشك فى ان بهم شوقا للاستزادة من تلك الفصول . فها هو قد أتمها أربعة عشر فصلا ، وما أظن — وما أرجو — أن سيقف بها عند هذا الحد .

ان كتب الدكتور طه من صنفين : الأول كتب أدبية بحتة

والثانى كتب فى نقد الأدب وفى تاريخه . وهو نفسه ينعت هذين النوعين بالأدب الانشائى والأدب الوصفى ، يمثل الأول كاتب مثل شكسبير ، ويمثل الثانى كاتب مثل سنت بوف . وأولى بنا أن ندعو النوع الأول بالأدب : والثانى بالنقد والضرب الأول هو الأسمى والأشرف ، وكثير من الناس يستطيع أن يستحسن أو يستهجن وأن يبحث ويقرر . أما الابتداع فلم يتح الا للقليل من الناس. ولقد حاول سنت بوف أن يكون شاعراً فلم يأت بعظيم ، فانقلب الى النقد ولسان حاله يقول: من استطاع فليكتب، ومن لم يستطع فلينقد !

فى هذه العبارات شىء من التحامل على الناقدين ، وقد أوردناها على هذه الصورة عمدا لأننا نريد أن نتحامل على طه حسين الكاتب الناقد ، وان ننتصف منه لطه حسين المؤلف الأديب . فقد رأيناه الاستاذ أحيانا ولعا بالانصراف الى النقد والى المؤلفات النقدية مثل حديث الاربعاء وحافظ وشوقى والأدب الجاهلى . ولقد تعجبه هذه الضجة التى تبعثها كتاباته ، ويغتبط بهذا العثير الذى يثيره فى الفضاء ويملأ به الجو حينا من الزمان . والحقيقة التى نرجو أن يدركها الاستاذ قبل فوات الاوان هى أن الصفحة الواحدة من كتاب (الأيام) أبقى على الزمن من كتاب الأدب الجاهلى كله .

ليس لطه حسين اذن فى الأدب البحت سوى كتب ثلاثة : (الايام) و(فى الصيف) و(على هامش السيرة) الذى بين ايدينا

ويمتاز هذا الكتاب الجديد من سابقيه بأن المؤلف لم يلجأ هنا الى حوادث حياته الخاصة ، بل انصرف الى الأخبار القديمة ؛ فالتمس وحيه بين صفحاتها . . والذى يدهش له القارىء أن يرجع الى تلك الكتب القديمة ثم يعود الى (هامش السيرة) فيرى أمامه شيئا مبتدعا مخترعا ، وجدة جذابة ، وطرافة معجبة . ومع هذا كله لا يرى خروجا عن الأصول التى استوحاها المؤلف واستلهمها

اعتمد طه حسين على الكتب القديمة كما اعتمد شكسبير على قصص فلوطرخوس وأمثاله ، وشتان بين السبيل التى سلكها شكسبير وبين الاصل الذى استرشد به . . وكذلك كان طه حسين يتناول الحادث الذى يمر به قارىء السيرة عجلا ، دون أن يلفت نظره منه شىء ، يتناوله ثم يأخذ فى تصويره وتحليله وابرازه واظهاره وتقليبه على نواحيه ، حتى يثب أمام العين وثوبا ، ويبدو ما فى الحادث البسيط من حكمة وشعر ، ومن قوة وسحر . وأكبر شىء ساعد طه على تأليف كتابه هذا مقدرته على تبين الموقف الذى ينطوى على شىء كثير من الحكمة ومن الشعر ، فيختار هذا الموقف ثم لا يزال به يصقله ويجلوه حتى يبديه للعين رائعا مجسما ملموسا . وقد خدمه التوفيق فى الكتاب كله ، فان الفصول — وان تفاوتت أحيانا — فانها جميعا تشهد بحسن الاختيار ، والابداع فى التصوير .

وقد أصبحت أشخاص هذا الحديث ، وليست اسماء مجردة وألفاظا مسطورة ؛ بل كائنات حية بارزة نكاد أن نحسها ونراها تتحرك بين أيدينا : وقد أبدع طه أيما ابداع فى وصف شخصية عبد المطلب ووصف حياته بعد أن أخذ فى حفر زمزم ، الى القاء بأبرهة الاشرم ، الى رقعة الموت بين الأبناء والأحفاد . يصف طه هذا كله فنرى الصور أمام أعيننا مشخصة حية لا لبس فيها ولا ابهام .

فى الكتاب الى الكثير الذى يستثير الاعجاب ؛ ولكن أكبر ما يعجبنا فيه هذا الابداع فى تصوير الأشخاص عامة وشخص عبد المطلب خاصة ، ثم عبد الحيرة التى تنظم المناظر والمواقف ، بحيث يرى القارىء نفسه وقد نقل نقلا الى ذلك الزمن وتلك الأمكنة .

وقف المؤلف فى هذا الكتاب على (هامش) السيرة . لم يقف فى وسطها ولا بعيدا عنها بل على هامشها . وقد كان من حسن التوفيق أن اختار هذا الموقف الذى مكنه من أن يبتعد عن السيرة أحيانا اذا دعا لذلك داع ؛ ثم يعود إليها بعد أن يطوف بالآفاق ؛ معرجا على بلاد الروم والأحباش واليمن . وقد اضطر إلى أن يبتعد عن السيرة قليلا لكى يشرح لنا ماذا دعا أبرهة الأشرم الى الاغارة على البيت الحرام فى العام الذى قدر للعالم فيه أن يستقبل اكرم أبنائه وأشرفهم . فلقد جاء أبرهة من الحبشة الى اليمن لكى يؤدب يهود اليمن على اضطهادهم للمسيحيين الذين استوطنوا بعض جهاتها . . . وهذا كله اضطر المؤلف الى ان يرينا كيف حلت اليهودية محل الوثنية ، وكيف انتقلت اليهودية الى بعض نواحى جزيرة العرب وكيف حملها « تبع » ملك اليمن والى صنعاء الى اليمن . ثم كيف أخذت النصرانية تنتشر وسط الاضطهاد والمذابح ، فى مختلف الانحاء : فى مصر وبلاد الحبشة وفى نجران من بلاد اليمن . وكيف قام يهود اليمن فذبحوا نصارى نجران . وجاء الاحباش الى اليمن ليثأروا من اليهود . وكيف بقى أبرهة الحبشى حاكما على اليمن ؛ ثم حاول أن ينشر النصرانية فيها وفيما جاورها من الأقطار . وهكذا أقبل على الحجاز بجيشه وفيله . وأراد أن يدمر الكعبة فرده الله ودمر هو وجنوده . وفى تلك السنة ولد الصبى اليتيم محمد بن عبد الله .

كان لا بد للمؤلف أن يبتعد عن السيرة قليلا ؛ لكى يشرح لنا كل هذه الحوادث ، واضطر لأن يقوم بهذا الشرح فى خمسة فصول (من السادس الى العاشر)، تحس أثناء قراءتها أن المؤلف يكتب فى شىء من السرعة والايجاز ، كأنما يخشى أن يطول غيابه عن مكة وأهلها ، وعن السيرة وما يحيط بها . فهو يريد أن يسرع بالعودة اليها . وهو لهذا الى أن مضطر يلخص الحوادث ، على خطورتها ، تلخيصا ، ويكتفى فى بعض المواضع بان يلم بها إلماما . ولقد هممت بأن أؤاخذه على هذا لولا انى ذكرت أن المقام لا يحتمل الاطناب ، وان الاسراف فى نقش الإطار يحجب جمال الصورة ويضعف تأثيرها.

برغم ذلك كله فان فى هذا الوصف العجل للحالة الروحية فى الشرق قطعا هى آية فى دقة الخيال والتصوير . وان كان لا بد من الاستشهاد فلنذكر للقارىء على سبيل التمثيل تلك القطعة التى يعرض

علينا فيها آلهة اليونان فيرينا أبولو والمريخ وأرتيمس وأثينا ، وقد اجتمعوا لينظروا فيما عساهم يفعلون: فلم يلبثوا أن أجمعوا أمرهم على أن يرحلوا عن الديار التي سادوا فيها زمنا طويلا . وتحكموا في أهلها قرونا ، وقد آن لهم أن يتراجعوا أمام هذه الآيات السماوية الجديدة التي محتهم ونسخت دينهم .

بمثل هذا الحوار الشعري الجميل يصف لنا المؤلف كيف زالت الوثنية اليونانية وحلت محلها اليهودية والنصرانية . وهذه القطعة وحدها تشهد بان المؤلف قد رزق النصيب الأوفر من خصوبة الخيال ، والمقدرة على الباس الحادث العادي ثوبا شعريا رائعا .

وهنالك فائدة أخرى استفادها المؤلف في موقفه (على الهامش) ذلك انه استطاع ألا يتقيد بالترتيب الزمني للحوادث ؛ فاذا بداله أن يسهب في وصف شخصية راقته وأعجبته اندفع في وصفها الى النهاية ، لا يلفته عن ذلك حادث أو خطب . فقد أعجب - مثلا - وحق له أن يعجب ، بشخصية أم أوفي حاضنة النبي ، فلم يزل يصف حياتها منذ ولادة محمد بن عبد الله الى أن شهدت عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، ثم يعود بعد ذلك الى حديث الرضاعة ووفاة عبد المطلب

وهذه الخطة التي ألزم بها المؤلف نفسه قد تبدو غريبة وربما اعترض عليها بانها تدفع بالقارىء من أول السيرة الى عصر الخلفاء الراشدين ثم تعود به مرة أخرى الى بدء السيرة . ولا تزال بالقارىء هكذا ذهابا وايابا ، ومع أن لهذا النقد وجاهته التي لا شك فيها ، فان للمؤلف عذره بان الذي يريد أن يكتبه ليس حديث السيرة بالذات بل دراسات مستقل بعضها عن بعض ، وفي وسع القارىء أحيانا أن يطالع الفصل مقتطعا من الكتاب فلا يكاد يفتقر الى ما سبقه .

بقيت كلمة لابد منها عن أسلوب الكاتب ، أي عن طريق الأداء عن المعاني والابانة عما في صدر المؤلف.

ان لطه حسين من السيطرة على اللغة العربية التي لا تضارعها لغة في قوتها وفصاحتها ، كما لا تضارعها لغة في شدتها ومنعتها ، أن لطه حسين من السيطرة على هذه اللغة وعباراتها المتينة الرصينة مالا يعرفه الا الذين عاشروه من كثب وراقبوه وهو يعمل في قوة ونشاط . ومتى وفق الى اختيار الموضوع الذي يرضاه ؛ وهداه خياله الواسع الى طريقة معالجته ، فقد هان الامر وسهل كل شيء ومضى في الاملاء كما يتدفق النهر الجاري

غير أنا اذا كنا نشكو شيئا فانا نشكو هذه القوة بعينها . وهذه السيطرة التي قد تطغى أحيانا فتدفع بالكاتب الى التعسف ، والى الابتعاد عن الطريق التي يسلكها الناس جميعا ، انظر اليه مثلا إذ يحدثك عن الدمع الذي يتساقط غزيرا من العينين فيقول لك انها دموع غلاظ . ويكفي أن يعلم طه أن الناس جميعا يقولون دموع غزار ، لكي يقول هو دموع غلاظ.

هذا الشيء ، والقليل مثله مما قد يصادفنا في الكتاب ، سنة من سنن القوة والسلطان وأياها من قبل في مثل أبي تمام وأبي الطيب المتنبي الذي كان يتعمد هول الشيء الغريب النافر ولانه قوي ولانه مدل بقوته ، ولانه لا يبالي بالأرض ومن عليها .

وما أحسن المثل العامي الشهير (العافيه هبله !)

على ان المؤلف في هذا الكتاب قد أدى معانيه بلغة فيها بلاغة وابداع يفوقان حتى الذي ألفناه منه وتعودناه . والسبب في هذه الاجادة سهل إيضاحه : فان الموضوع الذي يعالجه هنا موضوع عربي صميم ، والبيئة عربية خالصة . والمتكلمون من قريش وغير قريش من الناطقين بالضاد . وهذا كله قد أتاح للمؤلف فرصة لأن يتدفق نهره العربي الفصيح الذي لا تشوبه عجمة اللاتين ولا التواء السكسون . فانطلقت سليقته العربية حرة طليقة واكبر الظن أنه هو ليس مدركا لهذا الامر . ومع ذلك فان في الكتاب قطعا قد بلغت في الاسلوب الشعري منزلة يصعب أن نجد لها مضاريا . حقيقة أن أمثال تلك القطع ليس في كل مكان من الكتاب ، ولكنها في كثير من المواضع ، بحيث يصح من العبث أن نستشهد هنا بقطعة أو قطعتين . ولا بد للقارىء من الرجوع الى الكتاب كله . ولابد له من قراءته في تأمل وتمهل وتذوق لهذه الفصول الرائقة التي يسموفيها النثر حتى يضاهي الشعر ، ويؤثر في النفس تأثيرا شعريا خالصا .

وللمؤلف شغف بالوضوح والبيان ، فهو لا يحاول أن يستر معنى ولا فكرة بستار أو غشاء . وما حاجة الوجه الجميل الى الستر ؟ فهو ليس من عشاق الغموض ، بل إنه ليسرف في حب الوضوح والجلاء اسرافا ، ولهذا نراه يكثر من هذا التكرار الذي يعرفه قراؤه دون أن يدركوا له سرا . بل ربما لم يدرك هو نفسه سر هذا التكرار . وقد يعده الناس من ضرورات النثر المنسجم ولهم في هذا بعض الحق ؛ ولكن أكبر الحق في هذا ان الذي يدفعه الى تكرار لفظ من آن لآن هو رغبته في ان يفهم عنه ما يقول من غير لبس ولا إبهام.

والآن ، وقد أوشك هذا النقد أن يختم ، يتردد في النفس سؤال: سؤال من ذلك الطراز الذي يدفعنا اليه الفضول الأدبي . وهو من أي أنواع الأدب هذا الكتاب الذي بين أيدينا ؟ أهو رواية قصصية تاريخية ؟ أهو من نوع المقامات أم مجرد مقالات ؟

ولست أدري ما ولع النقد بتصنيف كل شيء وتسمية كل أثر؟ ولئن كانت الفاكهة لذيذة شهية ، فهل يضيرنا أن نجهل اسمها ؟ ان الفكر البشري ما برح مولعا بأن ينسج على غير منوال. لكن اذا اجتهدنا أن نجد لهذا المؤلف شبيها بين المؤلفات ، فلعل أقرب شيء يشبهه هو تلك الملاحم التي تصف العصور الغابرة ، وتجمع بين القوة والاعجاز